سيميائية الأهواء في قصص مغامرات صعاليك الجاهلية

الأستاذة راضيـة لرقـم
جامعة منتوري- قسنطينة/ الجزائر

تمهيد:

تحتل الأهواء مساحة كبيرة من حياة الإنسان ومجالاتها العديدة، وهي تفصح عن حالته النفسية الشعورية، وتعبر بشكل كبير عن مختلف انفعالاته وأحاسيسه، التي يحاول الإنسان جاهدا ضبطها والتحكم فيها، ويسعى للتخلص من سلطتها، وردة فعله اتجاهها، سواء أكانت إيجابية أو سلبية، قصد تحقيق التوازن العاطفي، حيث" تتحدد الإحساسات من خلال محور المتعة والألم، وتنجم عن التكوين البيولوجي لدى الإنسان، وبواسطتها يرتد ما هو طبيعي في الطبيعة الإنسانية إلى المرتبة الحيوانية، ويتفرع إلى أمارات الإحساس (غرائز ورغبات) وأمارات التفكير(ردود الفعل)"[1]

ولطالما أولت السيميائية السردية أهمية بالغة لسيمياء العمل، ولدور العامل، وحالات التحول التي تطرأ عليه نتيجة البرامج السردية التي يسعى إلى إنجازها، قصد تحقيق علاقة اتصال بموضوعه القيمي، وفي الآن ذاته نجد أن سيمياء السرد لم تعط جانبا من الاهتمام لطبيعة الذات العاملة النفسية والانفعالية، رغم أن الفعل شديد الارتباط بالعاطفة، إن لم نقل أنهما متلازمان، بحيث" توجد داخل النظرية السيميائية حالتان: حالة الأشياء والحالة النفسية. وتتداخل الحالتان معا في إطار البعد السيميائي للوجود المتجانس، وهو ما يجعل العالم بوصفه حالة للأشياء يفعل ويؤثر في الحالة النفسية للذات"[2]

ولقد أدرك" **ألجرداس جوليان غريماس" "Algirdas Julien Greimas"** هذا النقص، عند إقصائه للعواطف والانفعالات من اهتمامات السيميائية وإجراءات تحليلها، وكان يأمل في إضافة إجراءات تتناول الأهواء بالدراسة والتحليل إلى المقاربة السيميائية للنصوص السردية[3]، إذ انصب جل اهتمامه على سيمياء العمل التي تحدد التحولات عن

طريق انتقال الذات الفاعلة من حالة اتصال بالموضوع القيمي إلى حالة انفصال عنه، دون أن يولي اهتماما للحالات الانفعالية والنفسية لهذا العامل، إذ ركز على الأفعال التي يقوم بها عامل الذات ونتائجها، والكفاءة التي يجب أن يكتسبها لتحقيق مشروعه وهدفه؛ باعتبارِ الكفاءة عنصرا ضروريا لتحقيق الإنجاز، إذ أن الذات قبل أن تنتقل إلى مرحلة الإنجاز، التي تقوم خلالها بالفعل المؤدي إلى اتصالها بموضوع القيمة، يجب أن تتحدد على مستوى الكفاءة؛ أي" **كينونة الفعل**""**Etre – Faire**"[4]

وانطلاقا من الملفوظ السردي يمكننا اكتشاف البعد الانفعالي وتجليات مختلف الأهواء المتضمنة داخل خطاطته السردية، بحيث أن" من ايجابيات التحليل الخطابي أنه يسعف على التمييز بين فئات من الاهواء على اساس تصنيف العوامل والأدوار المضطلع بها داخل الخطاطة الحكائية المقننة"[5]

وتولي سيميائية الأهواء اهتماما بالغا للجانب الشعوري، الانفعالي والنفسي لعامل الذات أثناء تنفيذه لمشروعه السردي، الذي يحقق له الانتقال من وضعية/ أو حالة إلى أخرى، وبذلك ينصّب اهتمامها على حالات عامل الذات أثناء انتقاله من الوضعية البدئية إلى الوضعية النهائية، أي من حالة انفصال الذات عن موضوع القيمة إلى حالة تحقيقه لوضعية اتصال به أو العكس، فالهوى وفق المنظور السيميائي هو" هوى تركيبي دلالي لا يلتفت إلاّ للممكنات الكامنة التي يمكن أن تتجسد من خلال وجوده الأدنى كما يتحقق في القواميس. لذلك، فهي لا تكترث لما تقوله الأخلاق إلّا من حيث المسارات المحتملة(البرامج والعلاقات البيعاملية) التي يمكن أن تولدها الإدانة أو التثمين، ولا تلتفت إلى ما يقوله الدّين وينصح به إلا من حيث إمكانات تحويل" النهي" و" الترهيب" و" الترغيب" إلى برامج سردية تتضمنها محكيات تضع الهوى ضمن سياق خطابي بعينه"[6]

وبالتالي فإن سيميائية الأهواء تتولى دراسة وتحليل المشاعر والانفعالات المختلفة، والمتعلقة بالإنسان داخل الخطاب، والبحث عن دلالة تلك الانفعالات والأهواء المنبثقة من ذلك الخطاب قيد الدراسة، انطلاقا من مستوييْه السطحي والعميق، وإبراز آليات اشتغاله فيها، من خلال مضمون نص الخطاب.

ومن السيميائيين الذين اهتموا بتحليل ودراسة الأهواء نجد كلا من:" **باري إيرمان**"

(Herman Parret)[7]، وكذلك" **الجرداس جوليان غريماس"" Algirdas Julien Greimas"**، في كتابه:" المعنى II"«Du sens II »، حيث تحدث عن إمكانية تحقيق سيميائية خاصة بالعواطف، وأســـــس حينها الكفاءة الصيغية للذات.[8]

ويعد كتاب كلٍ من" **جاك فونتاني" Jacques Fontanille** و" غريماس" **Greimas**:" **سيميائيات الأهواء- من حالات الأشياء إلى حالات النفس"**[9] محاولة لتحديد الإجراءات التي تسمح بدراسة العواطف؛ حيث يرى مؤلفاه" أن هناك صنفين من الحالات ضمن النظرية السيميائية هما حالات الأشياء وحالات النفس؛ بحيث يتداخل الصنفان في إطار البعد السيميائي للوجود المتجانس، وهو ما يجعل العالم بوصفه حالة للأشياء يفعل ويؤثر في الحالة النفسية للذات"[10]

إن الهوى" من حيث الطبيعة وممكنات التركيب يعد سلسلة من الحالات الانفعالية التي تتطور خارج البعدين المعرفي والتداولي(المكونين الرئيسيين في النص السردي). إنه يشكل بعدا جديدا داخل المسار التوليدي يطلق عليه المؤلفان: البعد الانفعالي، فالإنسان لا " يفعل" فقط، إنه بالإضافة إلى ذلك يضمّن الفعل شحنة انفعالية تحدد درجة الكثافة التي يتحقق من خلالها هذا الفعل"[11]، وكان هدفهما من هذا الكتاب هو" تشييد نظرية للأهواء على نحو لا تلتبس فيه بالنظرية السيميائية العامة، ويضمن، بالتالي، استقلالية البعد المتعلق بإثارة الانفعال"[12]؛ لذا سنوجز الحديث حول مفهوم سيميائية الأهواء في كتابهما هذا، حيث تضمن قسما نظريا وآخر تطبيقيا. أما القسم النظري فعملا من خلاله على" بيان الأسس الابستمولوجية المتحكمة في معالجة الأهواء من منظور سيميائي، والتدليل على استقلالية وملاءمة البعد الذي يهم إثارة الانفعال"[13]

أما القسم التطبيقي فقد قاما من خلاله بتحليل هويين هما:" البخل والغيرة" ليصلا في النهاية إلى محاولة" الإمساك بالهويين ضمن الخطاب، ومن خلال شكل تحققاتهما بعيدا عن الأحكام المسبقة، وبعيدا عن الصنافات التي قد لا تقدم أي شيء في مستوى بناء الدلالات. إنهما يقدمان من خلال صنيعهما هذا نموذجا جديدا لتناول الأهواء، وتحديد مضامينها استنادا إلى ممكناتها في الخطاب، لا استنادا فقط إلى ما تقوله القواميس"[14]

وسنعتمد في هذه الدراسة، على بعض الإجراءات التحليلية الواردة في كتاب

سيميائيات الأهواء لـ:" **غريماس** و" **فونتاني**"، بالإضافة إلى أعمال**"جاك فونتاني"**[15]، الخاصة بالمسار العاطفي للذات.

2- مضمون قصص مغامرات صعاليك الجاهلية:

إذا تصفّحنا أخبار الصعاليك العرب« نجد أنّ طائفة كبيرة منهم من الخلعاء والشذاذ[*]»[16]، ويضاف إليهم فئة" الأغربة" التي تمثّل أبناء العربي من الأَمَةِ، الذين اتّسمُوا بسواد بشرتهم، وقد انتقلت إليهم هذه الصفة من أمهاتهم، فكانوا منبوذين، وحقوقهم ضائعة[17]، فكان بعضهم« يرفض تلك الحياة" الهامشية" ويتمرّد على ذلك الوضع الاجتماعي الذليل المحتقر الذي فرض عليه، لأنّ لديه من القوّة النفسية ما يجعله يرفض قبوله، ومن القوّة الجسدية ما يمكنه من رفع راية العصيان في وجه هؤلاء السادة»[18].

فالصعاليك لم يكن يجمع بينهم نظام القبيلة لأنّها تخلّت عنهم أو فرّوا منها، بل كان يجمعهم المصير الواحد وإتّباع أسلوب واحد في الحياة أساسه السلب، وقطع الطريق على القوافل التجارية أو الغارات المفاجئة قصد ضمان استمرارية الحياة وأسباب العيش، فكانت تلك الأساليب الحياتية هي التي رآها الصعاليك منفذًا لهم من الفقر وجدب الصحراء وقسوتها،« بل بعضها كان مظهرًا شائعًا تقوم عليه حياة القبائل كالغارات، والفارق بين الصعاليك وغيرهم في هذا، أنّهم كانوا يتّخذون من هذه الحياة ما يشبه الحرفة في التفرّغ لها والمداومة عليها والانقطاع لها، وأنّ غيرهم كان يتّخذ منها ما يشبه الهواية التي تزاول في ظروف نفسية واجتماعية معيّنة»[19].

ولأنّ حياة الصعاليك كان عنوانها السلب وزرع الفزع بين التّجار المارين بقوافل التجارة وغيرهم بين أهل البادية، فلا مندوحة من أن يتضمّن شعر الشعراء الصعاليك قصص مغامرات سلبهم وغاراتهم،« وهم يتحدّثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته، المعجب بها، الفخور ببطولته فيها، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة»[20]، وهي في معظمها تروي مختلف الصراعات التي يعيشها الصعاليك، ومحاولاتهم التغلّب عليها، وهي صور لصراعات« مع الأسباب التي دفعتهم إلى الصعلكة، كالفقر والشعور بالمهانة والضياع، وصراع مع الصعلكة نفسها في مزاولتها، وما يتعرضون له خلال ذلك من مخاطر ومشقات، وصراع مع آثار الصعلكة، من الأعداء المجني عليهم»[21]،

فقد نظروا إلى نمطهم ذاك في الحياة وسيلة لاسترجاع حقوقهم الضائعة في كنف القبيلة، « فراحوا يطلبون المغامرة ويركبون الأهوال ناشدين العدل والمساواة اللّذين تنكبت عنها قبائلهم، فدأبُوا على السلب والغارة ووجدُوا فيها الردّ المناسب على الحاضر القاهر للصعلوك والمهين لكرامته»[22].

وكثيرًا ما سرد الشعراء- من خلال شعرهم- قصص تلك الغارات التي شاركوا فيها، وحكايا غزوهم، وأحيانًا أخرى يجنحون إلى حكي أخبار فرارهم من أعدائهم، حيت تحفّ بهم المخاطر التي تهدّد حياتهم فيلوذون بالنجاة فرارًا. فشكّلت تلك المغامرات وأحداث غاراتهم وغزوهم مضامين قصصهم الشعرية التي سردوها بصدق التصوير والمشاعر، والتي تعبّر عن مواقفهم اتّجاه الحياة والوجود، مبرزين من خلالها قوّة تحمّلهم لمخاطر الصحراء.

3- سيميائية انفعال الرفض في قصص مغامرات الصعاليك:

أ- التمظهرات المعجمية الدلالية للرفض:

نقف في هذه المرحلة عند تحديد الدلالة المعجمية لانفعال الرفض باعتبار أن" دراسة الوحدات المعجمية الهووية تتطلب استبدال تعريف بتسمية، ثم القيام بعد ذلك بصياغة تركيبية جديدة للتعريف ذاته"[23]

نجد معاني كلمة" رفض" في" لسان العرب" لابن منظور تتلخص في معنيين اثنين هما:" ترك الشيء" و" التفرّق"؛ حيث يقول:" رفضني ورفضته، رفضته الشيء، أرفُضُهُ وأرْفِضُه رفْضًا ورفَضًا، تَرَكْتُهُ وفرَّقْتُهُ"[24]، والرَّفَضُ هو" الشيء المتفرِّق "[25]، و" الروافِضُ: جنود تركوا قائدهم وانصرفوا فكل طائفة منهم رافِضَةٌ، والنسبة إليهم رافِضِّيٌ "[26]

يتمظهر انفعال الرفض في قصص مغامرات صعاليك الجاهلية التي تروي صورا ومشاهد لنفور الإنسان العربي الجاهلي من الظلم والذل، ودفاعه عن نفسه وكرامته بكل ما أوتي من قوة وبسالة، من خلال تمرد هؤلاء الصعاليك على قوانيين القبيلة وخروجهم عن عرفها وسلطتها، وعلى المجتمع القبلي كله بالخروج للغزو والإغارة، واعتمادهم على أنفسهم وما جادت به الحياة لاستمرارهم، فهم تركوا ذلك المجتمع الذي أساسه نظام القبيلة وقوانيسها المجحفة لحقوقهم، وأسسوا لأنفسهم مجتمعا خاصا بهم، يعيش على نهب أموال الأغنياء ظنا منهم أنهم يستعيدون حقوقهم ممن سلبوها منهم.

أما المعنى الحامل للتفرق فيتجلى من خلال خروج الصعاليك عن حكم وقوانين القبيلة، وخلع القبائل لبعضهم الآخر الذين ألحقوا بها الضرر من جهة، وكذلك في التمييز بين الصعاليك وغيرهم من أفراد القبيلة الواحدة من جهة أخرى، مما ساهم ذلك في خلق فجوة فرّقت بينهم، وزرعت بينهم العداوة والبغضاء رغم انتمائهم إلى قبيلة واحدة.

الكفاءة الهووية للذات الصعلوك:

اعتمدت سيميائية الأهواء على مفاهيم ومصطلحات سيميائية العمل، مما يجعل سيميائية الأهواء تتداخل منهجيا مع سيميائية العمل، فالذات الفاعلة من جهة، تحتاج الى كفاءة تؤهلها لإنجاز برنامج سردي يسمح لها بتحقيق الاتصال بالموضوع القيمي، ومن جهة أخرى، يجب أن تتوفر على كفاءة/ أو أهلية هووية، والتي" ليست مشروطة بالإنجاز، على العكس من ذلك، إنها هي ما يتحكم فيه: فمن جهة تتجاوز دائما الفعل الذي يترتب عنها- والامر كذلك، فالبخيل، وهو يشعر برضا على تكديس الثروات، لا يتوقف على فعل ذلك-، ومن جهة ثانية، إنها تتخذ شكل صورة/ هدف عند الذات، مؤسسة بذلك غاية الموضوع لذاته، وتقصي نسق القيم المهيمن"[27]

ولقد حدد غريماس الوجود الصيغي/ أو الكفاءة الصيغية للذات بوضع الصيغ: (الوجوب، القدرة، المعرفة والرغبة)، للكشف عن الهوية العاطفية للذات التي تتجلى من خلال المستوى السطحي للخطاب، فمثلا" يمكّننا التردد، الذي سيحيل على تنويع يفتح ويغلق في الوقت ذاته، من توقع مصير مركب للإرادة(إرادة وعدم إرادة)، ويحثنا على البحث داخله عن آثار محتملة في التجلي الخطابي. والأمر كذلك بالنسبة للهياج، فباعتباره شكلا جهيا سطحيا، فإنه يكشف عن وجود شكل خاص من التنويعات المعطلة: تلك التي يأتي بها التأرجح الخالص للتوترات، التوازن الذي لا يمكن رفعه بين الانصهار والانشطار؛ ويمكن تأويل توازن غير قار من هذا النّوع باعتباره تعايشا بين تنويعات تلغي تأثيراتها بعضها بعضا: مثلا تنويع يفتح وآخر يغلق، أو ايضا تنويع سريع وآخر ضابط؛ حينها سنكون مدعوين إلى وضع فرضية، في المستوى السردي، تتعلق بمواجهة كيفية إما بين إرادة ومعرفة، وإما بين قدرة وواجب، وبهذه الطريقة سنحيط، في هذه الحالة كما في تلك، بتخوم القلق

أو الضيق"[28]، وبالتالي فإن الكفاءة الهووية أو العاطفية موجودة أولا كحالة للذات، والتي هي شكل من أشكال وجودها السابق للإنجاز، باعتبار أن" كل الانفعالات في جوهرها هي، دوافع لأفعالنا... هي الخطط الفورية للتعامل مع الحياة التي غرسها التطور في كياننا الإنساني"[29]

إن عواطف الذات" الصعلوك" هي صيرورة حالاتها الشعورية التي تتحكم بها عوامل خارجية وتؤثر فيها، وتتدخل في شدتها التي يمكن تحديدها، حيث أن تشكل عاطفتها يكون وفق مسارها العاطفي الخاص بالرفض، وفق صيغ متتالية توازي تجلياتها القيم الصيغية التي تتعاقب لينتج عنها في الاخير الأثر العاطفي؛ فمشاعر الرفض التي استحوذت على نفسية" الصعلوك" نتيجة يقينه بحتمية مجابهة ظلم القبيلة، وسلطة القدر، وحبه للبقاء وعزة نفسه في مقابل ذلك، تجعله دائما في حالة استنفار ويقظة، وحذر دائم من كل خطر قد يداهمه فجأة، فهو يعلم ما قد يهدد حياته ويستبيح فناءه.

بما أن الذات(الصعلوك) تحاول التغلب على شعورها بالذل والظلم من قبل القبيلة، والذي يجعلها في حالة ضعف تمنعها من استمرارية حياتها في طمأنينة، ويعزز في الوقت نفسه هوى حب البقاء والحياة لديها، فإن" الهوى يمكن اعتباره أهلية: إنه يمثل باعتباره المعادل لـ" إرادة"، إرادة في الكينونة أو إرادة في الفعل، وحينها سنكون على مستوى الخطاطة السردية، في مرحلة إقامة تعاقد بين الذات والمرسل"[30]؛ إذ أن الذات(الصعلوك) تجاهد وتكابد كل أصناف المخاطر والمخاوف التي تهدد حياتها بالزوال أثناء الغزو والإغارة، وثورتها على قوانين القبيلة، في سبيل تحقيق المحافظة على استمراريتها وكرامتها، واستعادة حقوقها الضائعة، فالصعاليك جماعة رفضت بعضا من صور الإجحاف والظلم والحرمان التي تعيق تحقيقها لرغباتها في الحياة، وتحدّ من نطاق حرياتها، فأعلنوا تمرّدهم على القبيلة وقيودها، لتحقيق حريتهم وذواتهم، ولذلك انطلقوا إلى أفق أرحب(الصحراء)، قصد البحث عما افتقدوا إلى وجوده في كنف القبيلة.

- إن الذات(الصعلوك) في مرحلة الاحساس بانفعال الرفض الذي يعد معادلا موضوعيا لقدرتها على مجابهة ظلم القبيلة ومواجهتها بالانفصال عنها، والحصول على البديل المتمثل في فضاء الصحراء، المنفتح على تحصيل المال عن طريق الإغارة، يعيّن الوضعية التي تشكلها

صيغتا (الوجوب والقدرة)؛ إذ أن احتكار موارد المال والغنى على سادة القوم، في حين يعيش الفقراء حياة العوز والذل، جعل الصعلوك يشعر بوجوب رفض صور الإجحاف والظلم والحرمان هذه وغيرها، ويمتلك القدرة على مواجهة هذا الواقع بالتمرد على نظم القبيلة، والخروج للغزو لتحقيق الغنى والحرية:

ومَـــا نِلْتُهَا حتَّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً وكِدْتُ لأسْبَابِ المنيَّة أَعْــرِفُ
وحَتَّى رأيتُ الجُوعَ بالصَّيف ضَرَّني إذا قمتُ تغْشَانِي ظِلالٌ فأُسدِفُ[31]

يصرّح الشاعر بمعاناته من الفقر التي استمرت ما يقارب السنة؛ إذ بلغ به الجوع والهزال الحد الذي أنهك قواه، فأوشك على الهلاك، وأدرك ضرورة الخروج لتحصيل الرزق المشروط بالغزو، وامتلك القدرة الجسدية والنفسية التي تساعده لبلوغ مراده، فلم ينل تلك الثروة من الإبل إلا بعد أن قاسى الويلات من الجوع الشديد، وخروجه للإغارة[32]

اتخذ" الشنفرى" من فضاء الصحراء عالما بديلا عن القبيلة، ذلك العالم الذي وفّر له ما افتقده سابقا من أمان، دفء وشعور بالإنتماء إلى قوم جدد هم: ذئب، نمر وضبع، ويستند لتوفير الحماية لنفسه ودفع الأذى عنها في هذا العالم على أصحابة الثلاث: قلبه الشجاع، سيفه القاطع وقوسه القوي، وهي محاولة منه للرد على قوم" بني سلامان" وإثبات قوته، جلده وقدرته على الاعتماد على نفسه لهم ولذاته:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّــكُمْ فَإِنِّــي إلى قَــوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَــلُ
فَقَــدْ حُمَّتِ الحَاجَـاتُ وَاللَّيْـلُ مُقْمِــرٌ وَشُـدَّتْ لِطِيّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحَــلُ
وفي الأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى وَفِيهَا لِمَــنْ خَــافَ القِلَـى مُتَعَــزَّلُ
لَعَمْرُكَ مَا بِالأَرْضِ ضِيقٌ على امْرِىءٍ سَــرَى رَاغِبَاً أَوْ رَاهِبَاً وَهْوَ يَعْقِلُ
وَلِي دُونَــكُمْ أَهْلُون: سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَــاءُ جَيْــأَلُ
هُـمُ الأَهْلُ لا مُسْتَودَعُ السِّــرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِــمْ وَلاَ الجَانِي بِمَا جَـرَّ يُخْـذَلُ
وَكُــلُّ أَبِــيٌّ بَاسِــلٌ غَيْرَ أَنَّنِــي إذا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَــلُ
وَإِنْ مُـدَّتِ الأَيْدِي إلى الـزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِـمْ إِذْ أَجْشَـعُ القَــوْمِ أَعْجَــلُ
وَمَـا ذَاكَ إِلّا بَسْطَــةٌ عَنْ تَفَضُّــلٍ عَلَيْهِمْ وَكَــانَ الأَفْضَلَ المُتَفَضِّــلُ
وَإِنِّــي كَفَانِي فَقْدَ مَنْ لَيْــسَ جَازِيَاً بِحُســنَى ولا في قُرْبِــهِ مُتَعَلَّــلُ

ثَلاَثَـــةُ أَصْحَابٍ: فُـــؤَادٌ مُشَـــيَّعٌ وأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَـلُ(33)

- أما مرحلة مواجهة الخطر والموت أثناء الغزو والإغارة فهي تتكون من صيغتي(المعرفة والإرادة)؛ فالصعلوك يعلم ضرورة الدفاع عن نفسه وحريته، وتحقيق ذاته، ولا يتأتى له ذلك إلا بالإغارة لتحقيق الغنى وحماية نفسه من طعنات خصمه، وهو في الآن ذاته يملك الإرادة لبلوغ هدفه، وهي تمنحه القوة والقدرة على تخطي الصعاب التي قد تواجهه:

دَعِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى، فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شرُّهمُ الفقيــرُ
وأبعدُهم وأهونُـــــهم عَليهِ وإِنْ أَمْسَى لـهُ حسَبٌ وخيْرُ
ويُقصِيهِ النّـَدِيُّ، وتَزْدرِيـهِ حَلِيـــلَتُهُ ويَنْهَـرُهُ الصَغِيــرُ
ويُلقَى ذَا الغِنَى وله جلَالٌ يَكَادُ فؤادُ صَاحبـــُـهُ يَطِيرُ
قليلٌ ذنبُهُ، والـــذَّنْبُ جمٌّ ولكنْ للغِنَى ربٌّ غَـــفورُ (34)

إنّ" **عروة بن الورد**" يرى ضرورة السعي للغزو لتحصيل الرزق؛ لأن الغنى هو المقياس الإجتماعي الذي يحدد قيمة الإنسان، لذلك يطلب من زوجته أن تدعه يخرج للغزو لجمع المال، فالفقير في عرف مجتمعه هو شر الناس وأضعفهم وأهونهم عليهم، ويعامل بكل ازدراء، في حين يحضى الغني بالاحترام والغفران.

- إن إدراك الذات(الصعلوك) الوضع المكبل لحياتها، يمنحها وعيا بحقيقة الخطر الذي يعيق استمراريتها بطمأنينة وحرية، وحبها ودفاعها عنها يمنحها إغراء بتحدي جميع العراقيل التي قد تواجهها، ومحاولة التغلب عليها انطلاقا من التجسيد النهائي للفوز بالغنيمة بعد كل إغارة، فإن ذلك يمنحها الصيغ الهووية التي تبحث عن هويتها في آخر مرحلة لمسارها العاطفي، حين تتجلى رغبتها في تجاوز قهر القبيلة وظلمها وخطر الموت الذي يهدد حياتها في أي لحظة، حبا بالبقاء رغم قساوة وصعوبة العيش في فضاء الصحراء، والذي يتطلب منها وجوب تمردها على فوانيس القبيلة، وضرورة التمسك بشجاعتها لتتمكن من التغلب على كل خطر يواجهها في كل مرة؛ فالرغبة في الحياة الكريمة هي التي بثت فيها القدرة على رفض ظلم القبيلة والتمرد على قوانينها، وأعراف المجتمع وتقاليده، والسعي لاستعادة حقوقها المسلوبة بدل الرضوخ لها، وهي التي منحتها القدرة على تحمل مشاق البحث عن منافذ العيش في فضاء الصحراء والاعتماد على نفسها في ذلك. ونظرا لمعرفتها السبيل إلى ذلك كله من خلال امتلاكها للقدرة

الجسمية والنفسية لاقتناص المال من الأغنياء بالقوة، والتحلي بالشجاعة، فإن هذه الذات تتمكن من تحصيل كفاءتها الهووية، وبذلك يمكننا الآن استجلاء مسار العاطفة الخاص بالذات(الصعلوك) وفقا للمسار السردي الموازي له.

تجليات المسار العاطفي للذات الصعلوك:

نسعى في هذه الخطوة إلى البحث في تجليات مسار العاطفة عند الذات (الصعلوك) والوقوف عند مراحله الأساسية، اعتمادا على المخطط القانوني العاطفي، الذي له قيمة تأويلية، حيث أن" لكل سرد عاطفي شكل مميز، لكن من الممكن استخراج الخطوط العريضة أو العناصر الاساسية للمخطط القانوني العاطفي، والذي يعرّف المراحل اللازمة لمساره الكامل، الذي من خلاله يقوم كل نص بمساره بنفسه"[35]، ويسمح هذا المخطط بإدراك عاطفة الذات(الصعلوك) ومراحلها، المعبرة عن هواجسه الحسية، باعتبار أن البناء العاطفي للذات/ الصعلوك مر بمراحل ولم يتشكل دفعة واحدة.

وقد اقترح" فونتاني" هذا المخطط الذي يتكون من المراحل الخمسة الآتية[36]:

الوعي العاطفي Eveil Affectif ← الاستعداد العاطفي La Disposition← المحور العاطفي ← Le Pivot Passionnel← الانفعال Emotion← التهذيب Moralisation.

لقد رفض الصعلوك إجحاف وظلم القبيلة، وثار عليها بالخروج عن سلطتها، وتحقيق حريته واستعادة كرامته، فأعلن تمرده على القبيلة وقيودها، لتحقيق هدفه عن طريق السلب والنهب والغزو،" إذ يكتنف التمرد بعدان جوهريان، أولهما: الحرية، وثانيهما: الخصوصية الفردية، إذ لا يمكن أن يتحقق التمرّد دون إحساس المتمرد بضغوط القهر، بكلّ أنماطه، ومحاولة النزوح والخروج على أنماط القهر هذه، ولذلك يسعى إلى حرية تكسر أنماط القهر، كما أنّ خصوصية الأداء والفعل معبّرة هي الأخرى عن هذا الكسر »[37].

فالصعاليك فئة ضاقت ذرعًا بالوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي عاشوه في كنف القبيلة، فكان منهم أن حاولوا تغيير الوضع، والتخلّص من قيودها المحبطة، التي تحدّ من حرياتهم وتحجب عنهم أبسط حقوقهم.

ولعلّ محاولة الصعاليك لتحقيق ذواتهم والحصول على حرياتهم، كانت تحمل

في طياتها الرغبة في التغلب والتمرّد أيضا على ظروفهم الجديدة الصعبة، التي تفرض عليهم تحمّل عواقب أفعالهم، وتغيير الظروف إلى صالحهم، وتحقيق الأفضل دائما، لذلك كانوا دائما يفتخرون بنجاحهم في الغارات التي يشنّونها على أعدائهم، وانتصاراتهم في غزواتهم، ويحاولون التغلّب والانتصار على حياة اللاإستقرار التي تفتقد إلى الأمان والسكينة، لكنّهم في المقابل قد سلكُوا هذا النهج، لتحرير حياتهم وأنفسهم من كلّ قيد يشعرهم بالضعف والذل، ولكنّهم رغم ذلك كانوا يعانون من غربة الوطن والذات.

وفيما يلي سنفصّل الحديث عن المسار العاطفي لفئة الصعاليك وفق المخطط العاطفي القانوني الذي وضعه **" فونتاني"**:

1- الوعي العاطفي:

هو أول مراحل المسار العاطفي، وتكون الذات حينها مهيأة للإحساس بشعور محدد، إذ تشعر بحالة عاطفية معينة، وتكون حساسيتها في حالة يقظة، حيث تظهر بعض التغيرات الايقاعية والكمية لمسارها: سريعة مهيجة أو بطيئة، اضطراب أو ازدحام، توقف أو تسارع[38]

وتمثل هذه المرحلة بداية تجليات شعور فئة الصعاليك بالقلق والضجر من الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي تعيشه جرّاء قهر وظلم نظام القبيلة وإجحافها لحقوقها:

نشأ" الشنفرى" في غير قومه دون علمه بذلك إلا بعد حادثة وقعت له، إذ أنه ينتمي إلى الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث، وأسرته من بني شبابة بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان، وعندما أسرت بنو سلامان بن مفرج بن عوف رجلا من فهم فدته بنو شبابة بالشنفرى[39]، فعاش في كنف" بني سلامان على أنه واحد منهم، لكنه اكتشف ذات يوم أنه ليس من هؤلاء القوم الذين يعيش بينهم حين" نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره، وكان السلامي اتخذه ولدا وأحسن إليه وأعطاه، فقال لها الشنفري: اغسلي رأسي يا أخية وهو لا يشك في أنها أخته، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته، فذهب مغاضباً حتى أتى الذي اشتراه من فهم، فقال له الشنفري: اصدقني ممن أنا؟ قال: أنت من الأواس بن الحجر، فقال: أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتموني" [40]، وقال هذه الأبيات الشعرية ردا على التي لطمته:

أَلاَ هَلْ أَتَى فِتْيَانَ قَوْمِي جِمَــاعَةً بِمَــا لَطَمَتْ كَــفُّ الفَتَاةِ هِجِينَهَا
وَلَوْ عَلِمَتْ قُعْسُوسُ أَنْسابَ والدي ووالـــــدها ظَلَّتْ تَقَاصَرُ دُونَــها
أليس أبي خَيْــرَ الأَوَاسِ وَغَيْرِهـا وأُمِّــي ابْنَـةَ الخَيْرَيْـنِ لــو تَعْلَمِينَهَا
إذا ما أَرُومُ الوُدَّ بَيْــني وبَيْــــنَهَا يَؤُمُّ بَيَاضُ الوَجْهِ مِنِّي يَمِيـنَهَا (41)

إن هذه الأبيات الشعرية للشنفرى تصوّر ضجره وعدم قبوله لغدر" بني سلامان" به، واستعبادهم له، لذلك يفخر بنسبه الحقيقي، ردا على استصغار منزلته وإذلاله، فانطلق إلى فضاء الصحراء مفضلا عالم الحيوان على البشر؛ لأنه يرى الحيوان أكثر وفاء وأمانا من الإنسان، وأقسم على الانتقام من" بني سلامان"، وهو بذلك يعبر عن احتجاجه على ازدرائه، لتتسع دائرة انتقامه فيما بعد إلى المجتمع ككل حين ينظم إلى جماعة الصعاليك.

2- الاستعداد العاطفي:

في هذه المرحلة تتجلى العاطفة التي أيقظت شعور الذات، بحيث تتخيل الذات مشاهد توافق رغباتها والشعور الذي تود بلوغه، ويصير الاستعداد العاطفي حسب " فونتاني" لحظة تتشكل فيها الصورة العاطفية فتثير النشوة أو الألم(42)؛ إذ" من خلالها تتلقى الذات الهوية العاطفية الضرورية لتشعر بعاطفة معينة دون غيرها"(43)

إن عاطفة الرفض لدى فئة الصعاليك، بدأت عوارضها بإحساسهم بالضعف والذل نتيجة الحرمان الذي عاشوه، وإحساسهم بالقهر والغربة داخل المجتمع القبلي الذي ينتمون إليه، ممّا جعلهم يرفضون هذا الوضع الراهن، ويطمحون لتغييره؛ فصاروا يجوبون شعاب القفار وهم مستعدون للإغارة والرد على من يريدون الفتك بهم، فعاشوا محرومين من الألفة والأمن والإستقرار، وفي حالة قلق وخوف دائم، باحثين عن حياة كريمة حتى وإن صاحبها الفقر أو كانت نهايتها الموت:

ذَرِيني أُطَوِّفْ فِي البلادِ لعلَّنِــي أُخَلِّيكِ أو أُغْنِيكِ عن سُوءِ مَحْضَرِ
فإن فاز سهم للمنيـــــة لم أَكُن جَزُوعاً، وهَلْ عن ذاكِ من مُتَأَخَّرِ
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعـد لـكم خلف أدبار البيوت ومنــظر (44)

إن" عروة بن الورد" يرفض الوضع الإجتماعي الذليل الذي يشعره بالاحتقار، ويجعله يعاني من العوز والجوع، ويعرض أهله للهلاك، فنفسه الأبية للذل والهوان وشجاعته

تمنحانه القوة للثورة على هذا الوضع، وعدم قبوله والذي يتجسد من خلال خروجه إلى الغزو، والمخاطرة في سبيل الحصول على المال أو الرزق له ولأهله، لذا يخاطب زوجته طالبا منها أن تكف لومها على خروجه للإغارة، فإنه يفضل الموت على حياة الذل والهوان، وإن عاد سالما غانما فإنه سيكفيهم سؤال الناس حاجاتهم.

3- المحور العاطفي:

في هذه المرحلة تتغير الحالة العاطفية والانفعالية للذات، ويطرأ عليها تحول انفعالي نهائي، حيث تصل خلالها الى التعرف على حقيقة الاضطرابات التي مرّت بها حتى ذلك الحين(45)

وتتجلى هذه المرحلة في تحول انفعال الرفض لدى فئة الصعاليك إلى الشعور بالشجاعة والقوة للتغلب على ضعفها وقهر ظروف الحياة الصعبة، ويتجلى هذا الانفعال من خلال فعل التمرد ضد القبيلة والمجتمع؛ حيث أن وطأة مشاعر الغربة والظلم والحرمان وكذلك الرغبة في تحقيق الحرية والحياة الكريمة، كلها كانت أسبابا قويّة لتمرّد هذه الفئة من أفراد المجتمع لاستعادة ما حرموا منه.

إن الصعاليك كانوا يتخذون من الغزو والإغارة نهجا أو سبيلا للحصول على المال والرزق، رفضا منهم لحياة الفقر والذل، فكان كل فرد منهم إما" باحث عن قافلة يسطو عليها أو راكب يقتطع منه ما يستطيع، أو عاد وراء صيد قد يدفعه إلى أن يبعد وراءه إلى أمد غير يسير"(46)، معتمدين على شجاعة أنفسهم وقواهم النفسية والجسدية للدفاع عن حياتهم وكرامتهم وتحصيل قوتهم:

خَرَجنا فَلَم نَعهد وَقَلَّت وَصـــــاتُنا ... ثَمانِيـــــــــةَ ما بَـــــعَدها مُتَعَتَّـبُ

سَراحيـنُ فِتيانٍ كَأَنَّ وُجوهَهـــــــُم ... مـصابيحُ أَو لَـــونٌ مِنَ الماءِ مُذهَـبُ

نَمُرُّ بِرَهوِ الماءِ صَفحاً وَقَد طـــــوَت ... نَمـــــائِلُنا وَالـــــــــزادُ ظَنٌّ مُغَيَّبُ

ثَلاثاً عَلى الأَقدامِ حَتّى سَما بِنـــــــا ... عَلى العَـوصِ شَعشاعٌ مِنَ القَومِ مِحرَبُ

فَثاروا إِلَينا في السَوادِ فَهَجهَـــــجوا ... وَصَوَّتَ فينا بِالصَـــــــــــباحِ المُثَوِّبُ

فَشَنَّ عَلَيهِم هَزَّةَ السَيفِ ثابـــــِتٌ ... وَصَمَّـــمَ فيهِم بِالحُســـــــــام المُسَيَّبُ

وَظِـــلتُ بِفِتيانٍ مَعي أَتَّقيـــــــهُمُ ... بِـــهِنَّ قَليلاً ســـــــــاعَةً ثُمَّ خُيِّبُـــوا

وَقَد خَرَّ مِنهُم رَاجِـــلانِ وَفـــارِسٌ كَمِـــــيٌّ صَرَعنـــــاهُ وَخومٌ مُسَلَّبُ
يَشُـــنُّ إِلَـــــيهِ كُلُّ ريـــعٍ وَقَـلعَـةٍ ثَمـانِيَةٌ وَالقَـومُ رِجـــــلٌ وَمِقنَـــــبُ
فَلَمّا رَآنا قَومـــــُنا قيلَ أَفلِـــــحوا فَقُلنـا اِسأَلـــــوا عَن قائِلٍ لا يُكَذَّبُ[47]

إن" الشنفرى" يروي لنا قصة غزوه على قوم من" بجيلة" مع رفاقه الثمانية، لا يمنعهم عن مقصدهم لا خوف ولا تردد، مسرعين نحو هدفهم الذي وصلوا إليه بعد ثلاثة أيام مشيا على الأقدام، ثم يحكي تفاصيل المعركة بينهم وبين ضحاياهم وقد تفطنوا لهم" ودارت المعركة وقام كل من الصعاليك بدوره فيها في بطولة وشجاعة: أما تأبط شرا فقد بدأ هجومه السريع بسيفه الذي يهتز في يده لسرعة ضرباته، وأما المسيّب فقد أعمل فيهم سيفه في تصميم لا يلين، وأما الشنفرى فقد وقف للدفاع هو وجماعة من فتيان الصعاليك بعد أن قتلوا جماعة من أعدائهم وسلبوهم"[48]، وعادوا إلى قومهم وكلهم فخر بصنيعهم وبسالتهم؛ حيث أنهم بلغوا مرادهم بفضل شجاعتهم وقوتهم وتكاثفهم.

4- الانفعال:

في هذه المرحلة يتم التركيز على الاضطرابات التي تعتري الجسد المستقبل لردود الافعال، مثل القفزات، الارتعاشات، الارتجافات، التشنجات والاضطرابات... وغيرها التي تظهر عن طريق رد الفعل[49]

سنبحث إذن في هذه المرحلة عن المفردات الدالة على توتر جسد الذات/ الصعلوك نتيجة الانفعال الذي تعاني منه، فالجسد من خلال ما يطرأ عليه من تأثير يتجلى في شكل علامات، تمكننا من التنبؤ بالحالة العاطفية للذات، حيث" يكتسي التمظهر الأهوائي" طابعا تمثيليا، أو بلغة بلاغية، تصويريا مبالغا فيه، فيغدو الجسد، بقدراته التصويرية تلك، المركز المرجعي للمسرحة الأهوائية بكاملها. هكذا تنفصم الذات إلى ذات مدركة وذات حاسة، تمكن المحلل السيميائي للخطاب الأهوائي من تبرير تخلخلات الخطاب وجذبات الذات التي ترغب في تملك العالم وإضفاء طابع مجازي وتخييلي عليه"[50]

إن الشاعر الصعلوك يشكل دلالة ووعيا خاصا بالجسد يتجاوز حدود العرف الجمعي القبلي المتعارف عليه؛ إذ تتداخل ضمنه الصور ليكتمل النموذج المثال وفق نظرتهم:

إني امْـــــــــرِؤ عَافِي إنَائِي شِرْكَةَ وَأنـــتَ امْرُؤٌ عَافِي إنَائِكَ واحِـــدُ

أتهزأ مني أن سمنت وأن تـــــرى بوجهي شحوبَ الحقِّ، والحقُّ جاهـد
أُقسّمُ جسمي في جســـــوم كثيرة وأحـــــسو قراح الماء والماء بارد[51]

إن" **عروة بن الورد**" يرسم صورة لجسد الصعلوك/ الأب الذي يرأف بجسد لآخر الفقير والضعيف، والمهتم بمصيره، فيجعل جسمه متداخلا في جسد الآخر، فيشعر بأنينه وضعفه، ومتوحدا فيه؛ إذ يستأثر الشاعر ضيوفه بطعامه وشرابه، فيهزل جسمه، في حين يصير جسد ضيفه سمينا، دلالة على السخاء اللامحدود.

يقدم الصعلوك صورة أخرى للجسد الذي لا يهدأ بحثا عن ضالته، القوي والشجاع، فهو جسد بارز عروق الذراعين، عاري عظم الساقين، إنها صورة جسد البطل الذي لا يقف في طريق هدفه أي عقبة إلا وتحدّاها، وكثير الغزو، إنها صورة الجسد الذي يقوى على تحمل أعباء فيافي الصحراء ومشاق الحياة فيها:

لكنَّما عوَيلي إن كنتُ ذا عـولٍ على بصيرٍ بكسبِ الحمدِ سبَّاقِ
سَبَّاقِ غَايَاتِ مَجْدٍ فِي عَشِيرَتِهِ مُرجِّعِ الصَّوتِ هدّاً بينَ أرفـاقِ
عَارِي الطَّنَابِيبِ مُمْتدٍّ نَوَاشِـرُهُ مِدْلاَجِ أَدْهَمَ وَاهِي الْمَاءِ غَسَّـاقِ
حَمَّـالِ أَلْوِيَةٍ شَهَّـــادِ أَنْدِيَـــة قوَّالِ مُحكمَـةٍ جوَّابِ آفـــــاقِ
فذاك همّي وغزوي أستغيثُ بهِ إذَا اسْتَغَثتَ بِضَافِي الرَّأْسِ نَغَّاقِ[52]

لقد حاول الصعلوك تعويض ما كان ينقصه من خلال الإحساس بالقوة النفسية والروحية عن طريق الجسد المتماهي مع إصراره على التغلب على جل الأسباب التي تشعره بالضعف والذل، وتحقيق البطولة التي لا تتأتى له إلا إذا كان:

" صاحب قضية(صاحب رسالة)

وأن يتصرف في سلوكه تحت وطأة الشعور بالالتزام

وأن يعيش إحساسا عميقا بالمسؤولية

وأن يجمع بين القوة الجسدية وقوة الإرادة

وأن يتصف بروح المواجهة(الإقدام)، ويخوض الصراع بجدارة ضد الخصم"[53]، وهي نفسها صورة ذاته التي كان يسعى إليها ويثبت وجودها، فتتحمل فداء لها كل مظاهر معاناته حتى الجوع :

وإنّي لأَثوي الجوع حتى يملّني فيذهبَ لم تدنس ثيابي ولا جرمي
رُدُسُجاع البطن قد تعلمـينه وأُوثر غيري من عيـــالك بالطُّعمِ
مخافة أن أحيا بِرُغْـــمٍ وذِلَّةٍ وللموت خيرٌ من حياةٍ على رَغـــمِ
رأَت رجلاً قد لوَّحته مخامصٌ فـــطافت برنَّان المَعَدَّيْن ذي شحمِ (54)

لقد عبّر الشاعر الصعلوك عن رفضه للوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يؤرق مضجعه، من خلال الجسد الذي نسب إليه صفات القوة والجلد والثبات، فهو الذي يمنحه القوة الروحية والنفسية للتغلب على قسوة الظروف، وبيئة الصحراء التي يقل فيها الخصب، وحياة التمرد التي لا تقل مشاكلها وأعباؤها عن العيش في كنف القبيلة.

5- التهذيب:

يمكن في هذه المرحلة تقييم عاطفة الذات وفق القيم السائدة في المجتمع، بحيث تمَّحي الذاتية في إطار الجماعة، سواء أكان ذلك التقييم ايجابيا أم سلبيا، و" بصفة عامة إنها العدوى العاطفية التي يبحث التهذيب عن التحكم بها وتحديدها، من أجل هذا هي تقوم بتقويم المظاهر العاطفية، والذي يقوم من وجهة نظر الجماعة التي تشهد عليه وتترجمه، حيث أن النتائج تصل إلى تعديل التبادل العاطفي وأساليب تعبيره"(55)

كانت حياة الصعاليك كلها حركة وبحث دائم في فيافي الصحراء عن قُوتِهِم وحقوقهم التي سُلِبَت منهم، من خلال مغامراتهم المتعددة في الغزو والإغارة، والتي يفتخرون بها وبانتصاراتهم فيها؛ إذ" تحتل أحاديث المغامرة في شعر الصعاليك المكان الذي يحتله شعر الفخر والحماسة في شعر غيرهم ممن ينطقون بلسان قبائلهم ويدافعون عن شرفها، ويعيشون في ظلها، فهناك يفخر الشاعر بأن قبيلته تخوض الحروب المشرّفة وتنتصر فيها، ويصف تفصيلات لقاءاتها الحربية مع أعدائها الأشاوس الأشداء، ويفخر الشاعر بأنه الفارس المقاتل الشجاع، كل ذلك في إطار القبيلة، حروبها وغاراتها وغزواتها، أما الصعاليك فمجال التفاخر في حرب القبائل معدوم لأنه لا قبيلة لهم فسبيلهم إلى الفخر إذن في مجال الشجاعة والإقدام هو وصف هذه الغارات التي يقوم بها الصعلوك وحده أو مجموعة من رفاقه الصعاليك"(56)، وتلك المغامرات في الآن ذاته، تعد السبيل الذي اختاروه لإثبات ذاتهم، وضمان استمراريتهم التي تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم ورفاقهم، إذ لم يكن هدفهم السلب والنهب لتحقيق الغنى،

بل تعدّت حدود اهتمامهم به ذاتية الفرد منهم، بل تعدت تلك الحدود الضيقة، فقد كان " عروة بن الورد" يغامر بحياته ويصارع من أجل الآخر الفقير الضعيف.

إن الصعلوك كان يرى في التمرد والثورة على نظم القبيلة والغزو النهج الأمثل لتحقيق حريته التي تضمن له الأمن والحياة الكريمة، لكن حياة التشرد لم تكن سهلة ولا آمنة، بل جعلت الصعلوك في حالة تأهب دائم لأي خطر قد يحدق به في أي لحظة، حتى أثناء إغاراتهم، فقد كانوا يفرون جريا على أقدامهم حين يرون في بقائهم هزيمتهم وهلاكهم:

لَمَا رَأَيْتُ القَوْمَ بِالـ ـعَلياءِ دُونَ قِدَى المَناصِبْ
وَفَرِيتُ مِنْ فَزَعٍ فَلاَ أَرْمِي ولاَ ودَّعَتُ صَاحِبْ
يَعْرُونَ صَاحِبَهُم بِنَا جَهْدًا وأَعْرَي غَيرَ كَاذِبْ
أَعْرَى أَبَا وَهبٍ لِيُعْـ جِزَهُم ومَدُوا بالحَلائِبْ
مَدَّ المَجَلْجَل ذِي العَمَا ءِ إِذَا يَراح مِنَ الجَنَائِبْ
يغرى جَذِيمَة والرِّدَا ءِ كأَنَّهُ بأقب قارِبْ
خَاظَ كَعِرقِ السِدْرِ يَسْـ ـبِقُ غَارَة الخوصِ النَجَائِبْ
عَنَـتْ لهُ سَفعاءَ لَكَـ كَتْ بالَبضيعِ لهَا الحَبَائبْ
وَخَشِيتُ وقْعَ ضَرِيبَةٍ قَدْ جَربتْ كُلَّ التَّجَارِبْ
فَأَكُونُ صَيْدَهُمْ بِهَا وأَصِيرُ للضَّبْعِ السَواغِبْ
جَزَرًا وللطيرِ المُرِبَـ ـةِ والذئَابِ وللثَعَالبْ
وتَجُرُ مُجْرِيَةٍ لهَا لحْمِي إلى أُجْرٍ حَوَاشِبْ[57]

إن" **الأعلم الهذلي**" يخشى أن يصير طعاما للذئاب والضباع والثعالب والطير بعد أن يقتل بسيوف القوم الذين يطاردونه هو وصاحبه، فيحثه على الفرار والسرعة في العدو حتى لا ينالوا منهما.

كما أن فئة الصعاليك في إطار حمايتهم لأنفسهم من الوقوع في أيدي أعدائهم أو من يسلبونهم مالهم، فإنهم كانوا يتخذون المراقب حصنا منيعا لهم، يترقبون قوافل التجارة ويغيرون عليها، فيأخذون مالهم دون أن يراهم أحد أو يتعرف عليهم، أو يتمكن من إيذائهم، فالمرقبة" التي يتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائما منيعة أبية على سواه، وأكثر ما يتحدثون

عن تربصهم فوقها والليل مقبل يغشى الكون بدياجيه الكثيفة، ليكون هذا أمعن في التخفي، وأقرب إلى مواتاة الفرصة، وأدل على جرأتهم وقوة قلوبهم"[58]

إن شعر الشعراء الصعاليك يروي في جانب آخر مشاعر التآزر بين بعضهم البعض من جهة، وبين أفراد المجتمع من الفقراء، من جهة أخرى، فقد جمعتهم أسباب كثيرة ومتعددة أدّت إلى تمردهم، لكنهم عاشوا تقريبا المعاناة نفسها، والاضطهاد ذاته وإن اختلفت صوره، فقد عانوا من الجوع والفقر الشديد والحرمان من أبسط حقوقهم، وحياة الذل والازدراء التي رفضوها، وكثيرا ما عبّر" عروة بن الورد" عن عطفه ومؤازرته للفقراء والضعفاء- كما رأينا سابقا- وها هو ذا يكرم ما يطرق بابه ليلا، فلا يرده خائبا:

سَلي الطارِقَ المُعتَرَّ يا أُمَّ مالِكٍ إذا ما أَتاني بَينَ قَدري وَمَجزِري
أَيُسفِرُ وَجهي إِنَّهُ أَوَّلُ القِـــرى وَأَبذُلُ مَعروفي لَهُ دونَ مُنكَري[59]

وإذا ما غزى أو أغار فأحرزا مالا فإن لجاره الفقير نصيبا منه:

فـإذا غَنيتُ فـإن جـاري نيلـه من نائلي وميسّري معهودُ[60]

إن المعاناة التي عاشها الصعاليك على المستوى النفسي، الاجتماعي والاقتصادي قادتهم إلى إعلان رفضهم وتحديهم لآلامهم التي عبّروا عنها من خلال ثورتهم على المجتمع، فتلون شعرهم بألوان من الحرمان والقتامة، تجمع بين صبرهم وظلم المجتمع وقهر الدهر لهم، ومرارة التشرد التي تلغي انتماءهم إلى الوطن/ القبيلة، وتشعرهم بغربة المجتمع \ الوطن والذات، ففروا إلى عالمهم/ الصحراء عَدْوًا، هروبا من الظلم الذي خلّف لديهم القلق والاضطراب، وبحثا عن عالم بديل، فيه النصر للأقوى هو فضاء الثأر والتحدّي، أساسه السيف البتّار والقوة الجسدية والنفسية، فصارعوا من أجل البقاء وحققوا وجودهم بإرادتهم.

وفي الختام يمكن أن نقول:

إن الذات(الصعلوك) رغم رفضه لقوانيس القبيلة وظلم المجتمع، وتمرده عليها، إلا أنه لم يستطع تغيير واقع المجتمع الذي يميّز بين الغني والفقير، ولا أن يغيّر نظرة المجتمع إليه، لذا استعان بالغزو والغارات ليحقق لنفسه السيادة، الكرامة والمكانة الاجتماعية التي كان يرغب بها، لكن ضمن مجتمعه الخاص به، وبذلك يكون قد تحوّل رفضه كانفعال إلى فعل التمرد على نُظُم القبيلة والمجتمع.

مصادر ومراجع

1- المصادر

1- الأصفهاني، الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء، ج21، دار الثقافة بيروت، ط(6). 1983
2- تأبط شرا، الديوان، اعتنى به عبد الرحمن البصطاوي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط(1). 2003
3- سعيد الحسن السكري، شرح أشعار الهذليين، ج(2)، حققه عبد الستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة- مصر، مطبعة المدني- مصر
4- السليك بن السلكة، الديوان، قدم له وشرحه سعدي الضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط(1). 1994
5- الشنفرى، الديوان، جمعه وحققه وشرحه اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط(2). 1996
6- عروة بن الورد، الديوان، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، 1998

2- المراجع باللغة العربية

1- أحمد محمود الخليل، في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر دمشق، سورية، ط(1). 1996
2- جليل حسن محمد: الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام، دار دجلة للنشر والتوزيع، عمان، 2011
3- عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987
4- عبد الحليم حفني، الشنفرى الصعلوك حياته ولاميته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط(1)
5- عبد المجيد نوسي: التحليل السيميائي للخطاب الروائي(البنيات الخطابية- التركيب- الدلالة)، شركة النشر والتوزيع المدارس- الدار البيضاء- ط(1). 2002
6- فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2003

7- كريم الوائلي: الشعر الجاهلي: قضاياه وظواهره الفنية، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن- عمان، ط(1)، 2008

8- محمد الداهي، سيميائية السرد- بحث في الوجود السيميائي المتجانس- رؤية للنشر والتوزيع، 2009

9- محمد الداهي، سيميائية الكلام الروائي، النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط(1). 2006

10- مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، الدار الدولية للاستثمارات، الثقافية، القاهرة، مصر، ط(1). 2008

11- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط(4)

3- المراجع المترجمة

1- الجرداس جوليان غريماس، جاك فونتنيي، سيميائيات الأهواء- من حالات الأشياء إلى حالات النفس- ترجمة تقديم وتعليق سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط(1) 2010

2- دانييل جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، مراجعة محمد يونس، عالم المعرفة، 2000

4- المراجع باللغة الأجنبية

1- Fontanille Jacques: Universitaire de Limoges, Paris, 1999 - Sémiotique du discours, Presse- Sémiotique et littérature (Essai de méthode), PUF, 1ere Edition, France, 1999-

2- Greimas Algirdas Julien , Du sens II, Essai Sémiotique, Edition du seuil, 1983

3- Herman Parret, Les passions (essai sur la mise en discours de la subjectivité), Pierre Mardaga éditeur, France, 1986

5- المعاجم

ابن منظور، لسان العرب، المجلدات (2)،(7)،(8)، دار صادر، بيروت- لبنان

الهوامـش:

(1) محمد الداهي، سيميائية السرد- بحث في الوجود السيميائي المتجانس- رؤية للنشر والتوزيع، 2009. ص: 62

(2) المرجع نفسه، ص: 88

(3) Algirdas Julien Greimas, Du sens II, Essai Sémiotique, Edition du seuil, 1983, p: 15

(4) عبد المجيد نوسي: التحليل السيميائي للخطاب الروائي(البنيات الخطابية- التركيب- الدلالة)، شركة النشر والتوزيع المدارس- الدار البيضاء- ط(1). 2002، ص: 239-240

(5) محمد الداهي، سيميائية السرد، ص: 88-89

(6) الجرداس جوليان غريماس، جاك فونتني، سيميائيات الأهواء- من حالات الأشياء إلى حالات النفس- ترجمة تقديم وتعليق سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط(1) 2010، ص: 11

(7) Herman Parret, Les passions (essai sur la mise en discours de la subjectivité), Pierre Mardaga éditeur, France, 1986

(8) Algirdas Julien Greimas, De Sens II (Essai sémiotique), édition Du Seuil, 1983. P 93-102

(9) عنوان الكتاب في لغته الاصلية :

Algirdas Julien Greimas- Jacques Fontanille, Sémiotique des passions (des états de choses aux états d'âme), édition Du Seuil, Avril 1991

وسنستعين بترجمة سعيد بنكراد لهذا الكتاب: الجرداس جوليان غريماس، جاك فونتني، سيميائيات الأهواء- من حالات الأشياء إلى حالات النفس- ترجمة تقديم وتعليق سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط (1) 2010

(10) محمد الداهي، سيميائية السرد، ص: 88

(11) الجرداس جوليان غريماس، جاك فونتنيي، سيميائيات الأهواء- من حالات الأشياء إلى حالات النفس- ترجمة تقديم وتعليق سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط(1) 2010، ص: 12

(12) محمد الداهي، سيميائية الكلام الروائي، النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط(1). 2006، ص: 17

(13) محمد الداهي، سيميائية السرد، ص: 88

(14) الجرداس جوليان غريماس، جاك فونتنيي، سيميائيات الأهواء- من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ص: 41

(15) Jacques Fontanille: Universitaire de Limoges, Paris, 1999 - Sémiotique du discours, Presse- Sémiotique et littérature (Essai de méthode), PUF, 1ere Edition, France, 1999-

(*) الشذاذ:« شذاذ النّاس: الذين يكونون في القوم ليسوا في قبائلهم ولا منازلهم». أنظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد (2)، دار صادر، بيروت- لبنان، ص: 493

الخليع:" هو الذي قد خلعه أهله فإن جنى لم يطالبوا بجنايته... والخليع: الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيتبرؤون منه ومن جنايته". أنظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد(8)، ص: 77

(16) يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط(4)، ص 98.

(17) المرجع نفسه، ص 110-111.

(18) المرجع نفسه، ص 112.

(19) المرجع السابق، ص 85-86.

(20) المرجع نفسه، ص 182.

(21) عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987 ص 183.

(22) جليل حسن محمد: الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام، دار دجلة للنشر والتوزيع، عمان، 2011 . ص 74.

(23) الجرداس جوليان غريماس، جاك فونتنيي، سيميائيات الأهواء- من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ص: 159

(24) ابن منظور، لسان العرب، المجلد(7)، ص: 155

(25) نفسه، ص: 155

(26) نفسه، ص: 157

(27) غريماس، فونتاني، سيميائيات الاهواء، ص: 164.

(28) المرجع نفسه، ص: 164.

(29) دانييل جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، مراجعة محمد يونس، عالم المعرفة، 2000، ص: 21

(30) غريماس، فونتاني، سيميائيات الاهواء، ص: 163.

(31) السليك بن السلكة، الديوان، قدم له وشرحه سعدي الضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط(1). 1994، ص: 84.

(32) المصدر نفسه، ص ص: 83- 84.

(33) الشنفرى، الديوان، جمعه وحققه وشرحه اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط(2). 1996، ص ص: (17- 18 -19)

(34) عروة بن الورد، الديوان، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية- بيروت- بنان، 1998، ص: 79.

(35) Jacques Fontanille, Sémiotique et littérature, p :79

(36) Voir: J.Fontanille, Sémiotique du discours, P.122.

(37) كريم الوائلي: الشعر الجاهلي: قضاياه وظواهره الفنية، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن-عمان، ط (1)، 2008، ص 199.

(38) J.Fontanille, Sémiotique Du Discours, p 122

(39) الأصفهاني، الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء، ج21، دار الثقافة بيروت، ط(6). 1983 ص: 179

(40) المصدر نفسه، ص: 179

(41) ديوان الشنفرى، ص: 78

(42) J.Fontanille, Sémiotique et litterature, p: 80

(43) J.Fontanille, Ibid, p: 79

(44) ديوان عروة بن الورد، ص: 67

(45) J.Fontanille, Sémiotique et litterature, p: 80

(46) عبد الحليم حفني، الشنفرى الصعلوك حياته ولاميته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط(1)، ص: 178

(47) ديوان الشنفرى، ص ص:(27- 28 -29)

(48) يوسف خليف، الشعراء الصعاليك، ص: 184

(49) J.Fontanille, Sémiotique et litterature, p: 80

(50) فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2003، ص: 44-43

(51) ديوان عروة بن الورد، ص: 61

(52) تأبط شرا، الديوان، اعتنى به عبد الرحمن البصطاوي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط(1). 2003 ص ص: 41 -42

(53) أحمد محمود الخليل، في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر دمشق، سورية، ط(1). 1996. ص: 131

(54) سعيد الحسن السكري، شرح أشعار الهذليين، ج (2)، حققه عبد الستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة- مصر، مطبعة المدني- مصر، ص ص: 127 - 128

(55) fontanille, semiotique et literatures, p :81

(56) مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، الدار الدولية للاستثمارات، الثقافية، القاهرة، مصر، ط(1). 2008 ص ص: 199- 200

(57) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج1 ، ص ص: 55- 56

(58) يوسف خليف، الشعراء الصعاليك، ص: 188

(59) ديوان عروة بن الورد، ص: 78

(60) المصدر نفسه، ص: 57